التعريف والنقـد

خليل مردم بك

الشاعر وديوانه باللغة الألمانية

Khalil MardaM Bey ,
der Dichter und sein Diwan

Koeln 1973 كولونيا (ألمانيا الغربية) ١٩٧٣

الأستاذ محمد كامل عياد

قبل نحـو خمسين عاماً ، وبالضبط في سنة ١٩٢٥ ، نشر الأستاذ (كامبفماير KamPffneher) في عدد خاص من مجلة « أنباء معهد اللغات الشرقية » في برلين دراسة بعنوان « شعراء عرب من العصر الحاضر » . وقد كان الأستاذ (كامبفماير) على صلة بالطلاب العرب الذين كنا ندرس في المانية وننشر الأخبار في الصحف الألمانية عن أوضاع سورية ، فطلب منا مراسلة شعرائنا المعروفين اذ ذاك وقام أحد رفاقنا الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة بالكتابة إلى الشاعر خليل مردم بك الذي كان يعرفـه من أيام الدراسة في (مكتب عنبر) . وأذكر أن الشاعر قد أشار في جوابه إلى أنه يفكر في القدوم إلى المانية لمتابعة الدراسة ، وسأل عن أحوال المعيشة وأنظمة الجامعات في تلك البـلاد . ويبدو أن الحوادث الطارئة والظروف الخاصة دفعت خليل مردم بك إلى تفضيل الذهاب في ذلك الوقت إلى انكلترة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد عادت بي الذاكرة الآن ، بعد نصف قرن ، إلى مبادرة الأستاذ (كامبفماير) الذي نشر ما كتبه خليل مردم بك نفسه في ترجمة حياته ونقل إلى الالمانية النماذج التي أرسلها من شعره . تذكرت ذلك بمناسبة رسالة جامعية أحالها عليّ السيد رئيس مجمع اللغة العربية لتعريف القراء بها . وعنوان الأطروحة هو : « خليل مردم بك ، الشاعر وديوانه » تقدم بها السيد « محمد تاج الدين خالد بك الخالد » في السنة الماضية إلى جامعة (كولونيا) بألمانية الغربية . والأستاذ تاج الدين الخالد ولد بدمشق سنة ١٩٢٢ ، حسبما ورد في ترجمة حياته ، وكان من تلامذة خليل مردم بك في الكلية العلمية الوطنية ومن المعجبين بشعره ، وكانت تربطه أواصر الصداقة بأسرة مردم بك وعلى الأخص بولد الشاعر المرحوم هيثم الذي رافقه في عهد الدراسة بالجامعة الاميريكية في بيروت ، والذي توفي سنة (١٩٤٢) ولمّا يبلغ العشرين من عمره . وكان المرحوم هيثم مردم بك ذا موهبة مبدعة ، وقد نظم الشعر في سن مبكرة ، مثل والده وأخيه ، ونشر بعض القصائد في الصحف ثم جمعها في ديوان مخطوط أهداه ، وهو في المستشفى ، قبيل وفاته ، إلى صديقه السيد تاج الدين الخالد الذي ما زال يحتفظ به .

بعد دراسة الانكليزية والاقتصاد والسياسة في الجامعة الاميريكية التحق السيد تاج الدين الخالد بالكلية العسكرية الفرنسية ، وأصبح ضابطاً في المدفعية برتبة ملازم في سنة ١٩٤٥ . وقد انتدب بعد الجلاء في سنة ١٩٤٦ لتمثيل الجيش السوري في اللجنة المكلفة بوضع القاموس العسكري الفرنسي – العربي والتي كان الاستاذ خليل مردم بك من أعضائها ، فكانت فرصة ثمينة للاشتراك في العمل وتوثيق روابط الصداقة . ثم درس السيد تاج الدين الخالد الحقوق والصحافة ، وسافر في سنة ١٩٥٨ بعد أن أصبح عقيداً في الجيش وبالاتفاق مع الحكومة السورية إلى المانية لدراسة اللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الالمانية وعلم الإدارة في جامعة (كولونيا) . وأخيراً بدأ في سنة ١٩٦٨ دراسة العلوم الإسلامية واليهودية والسامية في معهد اللغات الشرقية في الجامعة ذاتها ، حيث نال في صيف سنة ١٩٧٣ شهادة الدكتوراه على أطروحته عن « الشاعر خليل مردم بك وديوانه » .

لا أدري ما هي الأسباب التي دفعت السيد تاج الدين الخالد إلى التنقل مدة طويلة بين مختلف العلوم ، ولا أعرف الموضوعات التي تخصص بها حقاً ، ولم أطلع على مدى اشتغاله بالشعر والأدب . ولكن على الرغم من ذلك لا بد لي من التنويه بأهمية رسالته عن المرحوم الرئيس خليل مردم بك ، فهي مساهمة مشكورة في المحاولات التي تبذل لتعريف العالم بالحضارة العربية الحديثة . وإذا كان لا شك في أن المستشرقين قد قاموا بجهود جبارة في التنقيب عن تراثنا ، ونشر قسم كبير من آثار أجدادنا ، والبحث في حضارتنا الفكرية والمادية ، فمن المؤكد أيضاً انهم قد اقتصروا في الغالب على العصور الماضية من تاريخنا ، ولم يبدأوا إلا منذ عهد قريب في الاهتمام بنهضتنا الحديثة . غير انهم لم يترجموا حتى الآن سوى نماذج قليلة من مؤلفات بعض كتابنا المعاصرين . وفي الحقيقة فمهمة التعريف بتراثنا القديم ونهضتنا الحديثة إنما تقع على عاتقنا نحن العرب . لذلك لا بد لنا من الترحيب بكل الجهود الصادقة في هذا السبيل ، كما هي الحال مع محاولة السيد تاج الدين الخالد الذي اختار شخصية الشاعر خليل مردم بك وديوانه موضوعاً لرسالته باللغة الألمانية .

فقد كان المرحوم الرئيس من أبرز رجال الأدب والفكر ومن ألمع الشعراء في أوائل هذا العصر ، كما استطاع منذ عنفوان شبابه أن يبرز في الصف الأول بين أعلام النهضة الحديثة وقادة الحركة الوطنية ، ودعاة الوحدة العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد تعرض السيد تاج الدين الخالد في رسالته إلى حياة « شاعر الشام» فنقل الترجمة الذاتية التي كان نشرها له الأستاذ (كامبفماير) ثم وصف مسكن أسرته ، وتكلم على نسبه ونشأته والمناصب التي تقلدها ، وذكر نشاطه الأدبي والعلمي والكتب التي ألفها أو حققها . وبدد وقفة قصيرة عند السنوات الأخيرة من حياة الشاعر التي واجه فيها المرض والضعف ، والتي اتصفت بالرزانة والصمت والحزن والانطواء ، انتقل المؤلف إلى تحليل شخصيته الفذة التي تمزج بين كرم المحتد ونبل القصد وسمو الخلق ؛ وقد أبرز بين صفاته المميزة تعففه وتواضعه واتزانه وحكمته وإيمانه .

ثم بحث المؤلف في « النواحي الشكلية » من شعر خليل مردم بك فأشاد بعبقريته المبدعة وموهبته الفنية ومقدرته البيانية ، وشرح نظرته إلى الشعر فبين من جهة تمسكه بالقوالب التقليدية ومحافظته على سلامة اللغة والتراكيب ، وكشف من جهة ثانية عن نزعته إلى التجديد سواء في انتقاء موضوعاته أوفي حرصه على وحدة القصيدة مما جعله يتبوأ مكانة خاصة في تاريخ الأدب العربي الحديث « كمحافظ متجدد » يعتبر صلة وصل بين الشعر القديم والجديد ورائداً للاتجاهات العصرية .

يقسم السيد تاج الدين الخالد نشاط الشاعر الأدبي إلى ثلاث مراحل ، يذكر أعماله في كل منها ويصف طريقته في التأليف . فهو يحدد مرحلة الشباب بين سنة ١٩١٧ و ١٩٢٥ ، والمرحلة الوسطى التي بدأت بعد العودة من لندن في سنة ١٩٢٩ واستمرت حتى سنة ١٩٤٢ ، والمرحلة الأخيرة من ١٩٤٣ حتى سنة ١٩٥٨ أي إلى قبيل وفاته .

وقد عني المؤلف « بالاحصائيات » فقام بتعداد المرات التي استخدم فيها الشاعر مختلف البحور مثل « البسيط » [٤١ مرة] و « الكامل » [٢٨ مرة] ومرة واحدة كلا من « المديد » و « المقتضب » و « المنسرح » و « المتدارك » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذلك أحصى المؤلف عدد القصائد في كل باب من أبواب الشعر ، فكانت في الوصف (٣٦) وفي النسيب (٣٧) والاجتماعيات (٢٨) والاخوانيات (٢٣) والوطنيات (١٩) والمراثي (١٥) والاسلاميات (٢) . وقد تضمن الديوان (١٦٠) قصيدة بلغ مجموع أبياتها (٣٤٧٩) .

بعد الانتهاء من دراسة حياة الشاعر وانتاجه الأدبي والعلمي قام المؤلف في القسم الثاني من أطروحته بانتقاء (٤٣) قصيدة من الديوان ترجمها الى اللغة الألمانية وعلق عليها . ويمكن القول إن السيد تاج الدين الخالد قد حالفه التوفيق في اختيار القصائد التي أحسن ترجمتها بصورة دقيقة تساعد القارىء الألماني على تكوين فكرة واضحة عن عبقرية « شاعر الشام » ومهارته الفنية وروحه النبيلة وشخصيته الفذة ومبادئه المثالية .

وأخيراً تجدر الاشارة الى أن المؤلف قد زين أطروحته بنماذج من خط الشاعر وبمجموعة من صوره في طفولته ومختلف مراحل حياته وبين أفراد أسرته .

محمد كامل عياد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net